روسيا الإمبراطورية والاستعمارية وعدوانها على أوكرانيا

لكل أمة الحق في تقرير مصيرها. والشعب العراقي، عرباً وأكراداً ومجموعات عرقية أخرى، يعرفون ذلك جيداً. لقد سفكت دماءهم مرات عديدة للدفاع عن أنفسهم ضد طغيان واستعمار القوى العظمى والإرهاب. غالبًا ما تسعى الدول الأقوى إلى إخضاع الجيران الأضعف وإستغلال مشاكلهم الداخلية، كما تتعامل القوى العظمى مع الدول الأخرى كأدوات، وتستخدمها في لعبتها. ولذلك، ينبغي للدول التي لديها خبرة في النضال من أجل الحرية أن تفهم بعضها البعض.

ومع ذلك، فإن الشعوب المختلفة لديها أيضًا تجارب تاريخية مختلفة. شهد الشرق الأوسط تنافسًا استعماريًا بين القوى الأوروبية. ومع ذلك، لا أحد يشكك اليوم في وجود الاستعمار البريطاني أو الفرنسي، لكن تلك الأوقات قد انتهت. إلا أن عصر الإمبريالية والاستعمار الروسي لم ينته بعد، والمفارقة هي أن روسيا تحاول تقديم نفسها كقوة محررة ومعادية للإمبريالية في أماكن لم يتم استغلالها فيها. ولم تكن روسيا القيصرية ولا السوفييتية، ولا روسيا بوتن الحالية، دولة محررة في أي وقت مضى، ودول أوروبا الوسطى، مثل بولندا وأوكرانيا، تعرف هذه الحقيقة تمام المعرفة.

وحقيقة أن الغزوات الروسية إن لم تكن في المناطق البحرية، هذه لا تغير من حقيقة أن هذه الإمبراطورية احتلت مناطق لا علاقة لها بالروس وهويتهم وتاريخهم. وكان هذا هو الحال في المناطق الشاسعة من سيبيريا والشرق الأقصى وآسيا الوسطى والقوقاز وأوروبا الوسطى. أخضعت روسيا الدول الأخرى، ونهبت أراضيها، واستوطنتها، وحوّلت السكان المحليين إلى سكان روس. حاليا، المرتزقة الروس، ما يسمى الفاغنريون الذين ترسلهم روسيا، من بين آخرين، إلى الشرق الأوسط، على سبيل المثال إلى سوريا أو أفريقيا، لتحقيق حلم الإمبراطورية الروسية في المستعمرات الخارجية.

كتب الشاعر الروسي الكبير ألكسندر بوشكين قصيدة في عام 1831 بعنوان "إلى المفترين على روسيا"، ادعى فيها أن كفاح البولنديين من أجل الحرية كان "نزاعًا عائليًا". كان ذلك في وقت كانت فيه القوات الروسية تغرق الانتفاضة الوطنية البولندية في الدماء، و بنفس الوقت لم يعتبر البولنديين أن هذا "نزاعًا عائليًا". كتب بوشكين: "اتركونا، لأنكم لا تعرفون هذه الصفحات المتساقطة بالدماء [...] نزاعنا العائلي الأبدي غريب وغير مفهوم بالنسبة لك". لكن البولنديين رأوا الأمر بشكل مختلف تمامًا. لقد احتلت روسيا بولندا، مستغلة مشاكلها الداخلية، واستعبدتها، ثم زعمت أن كفاح البولنديين من أجل الحرية كان شأناً داخلياً يخص الروس والبولنديين ولا يستطيع الآخرون فهمه، لذا لا ينبغي لهم أن يتدخلوا فيه.

الدعاية الروسية: استغلال الاستياء وتشويه التاريخ

واليوم، تعرض الدعاية الروسية هجومها على أوكرانيا بطريقة منافقة مماثلة. وباستخدام التجارب التاريخية السلبية للشرق الأوسط، تحاول استغلال الاستياء الموجه ضد القوى الاستعمارية الأوروبية السابقة والولايات المتحدة الأمريكية. وتزعم روسيا أنها تدافع عن نفسها ضد غزو الولايات المتحدة وحلف شمال الأطلسي، وأن الأوكرانيين "إخوة" يستغلهم الغرب كما يزعمون. وفي هذه الصورة الزائفة، تظهر روسيا مرة أخرى كقوة مناهضة للإمبريالية. إلا أن الأوكرانيين الذين يموتون تحت القنابل الروسية، تمامًا مثل البولنديين قبل 200 عام، الذين شنقهم "الإخوة" الروس الذين لا يرحمون، يرون الأمر بشكل مختلف تمامًا. ويدرك البولنديون هذه الحقيقة ليس فقط بسبب تجاربهم الخاصة، بل وأيضاً لأن الملايين من الأوكرانيين وجدوا

المأوى في بولندا، هرباً من "إخوانهم" المجرمين. إن تقليص نضال الأوكرانيين من أجل حريتهم واستقلالهم إلى لعبة الولايات المتحدة العالمية يشكل كذبة كبيرة تمت صياغتها لتبدو ذات مصداقية في نظر أولئك الذين خاضوا تجارب تاريخية مختلفة.

البولنديون ليسوا روسًا ولم يكونوا أبدًا روسًا، على الرغم من أن الروس صدعو العالم في القرن التاسع عشر بخلاف ذلك. إنه نفس الشيء مع الأوكرانيين. إنها أمة منفصلة، لها لغتها الخاصة، وهويتها الخاصة، وتاريخها الخاص. حقيقة أن اللغة الأوكرانية تشبه اللغة الروسية لا تجعل الأوكرانيين روسًا. ويمكن لإيران بنفس السهولة أن تبني مطالباتها الإقليمية في إقليم كردستان في العراق على التشابه بين اللغتين الفارسية والكردية. لعدة قرون كان تاريخ البولنديين والأوكرانيين مرتبطين، وكانت العلاقات بين البلدين أفضل في بعض الأحيان، وفي أحيان أخرى أسوأ. قبل 100 عام فقط، كانت بعض المناطق التي تنتمي اليوم إلى أوكرانيا جزءًا من بولندا وكان البولنديون يعيشون هناك. ومع ذلك، وعلى عكس روسيا، تحترم بولندا سلامة أراضي أوكرانيا وسيادتها. هذا هو جوهر الأخوة، وليس ارتكاب العنف لأنك أقوى وفي نفس الوقت تكذب على العالم من أجل دوافعك.

وتقدم روسيا صورة زائفة للتاريخ لتبرير عدوانها. ومن ناحية أخرى، الحقيقة هي أن أوكرانيا وجدت نفسها داخل حدودها نتيجة للغزو الإمبراطوري في القرنين السابع عشر والثامن عشر، تماما كما فعلت مع بولندا بعد ذلك بقليل. كان للترويس المكثف وسياسة التجريد من الجنسية التي تم تنفيذها في القرن التاسع عشر تأثير، على الرغم من محدوديته. وكانت النتيجة أن بعض الأوكرانيين أصبحوا يتحدثون الروسية. ومع ذلك، لم يتخلو عن كونهم أوكرانيين ولم يصبحوا روسًا. واليوم، يعاني الأوكرانيون الناطقون بالروسية من العدوان الروسي بقدر ما يعاني منه أولئك الذين يتحدثون الأوكرانية. في بولندا اليوم، من السهل مقابلة اللاجئين الأوكرانيين الذين يتحدثون الروسية مثل أولئك الذين يتحدثون الأوكرانية.

ففي عام 1991 انهار العملاق الاستعماري الذي أطلق عليه اسم الاتحاد السوفييتي، تماماً كما انهارت الإمبراطوريتان الاستعماريتان في بريطانيا العظمى وفرنسا قبل ذلك بقليل. أعلنت أوكرانيا استقلالها، وهو ما أيده 90% من مواطنيها في استفتاء. وفي شبه جزيرة القرم التي احتلتها روسيا عام 2014، صوت 54% من السكان لصالح استقلال أوكرانيا، وفي الولايات التي تريد روسيا احتلالها حاليًا، أي دونيتسك ولوهانسك وخيرسون، 77% و84% و90% على التوالي. في ذلك الوقت، لم تشكك روسيا في شرعية هذه الاستفتاءات واعترفت باستقلال الدولة الجديدة وسلامة أراضيها. وبعد مرور 23 عامًا، غيرت رأيها فجأة لأنها لم تعجبها السلطات الأوكرانية الجديدة وقراراتها السياسية. لكل أمة وكل دولة الحق في أن تقرر بنفسها السياسة الخارجية التي تريد اتباعها ومع من ستعقد تحالفات. وهذا ينطبق على العراق وأوكرانيا وبولندا. إن التلاعب بالتاريخ لعبة خطيرة. لقد كانت شبه جزيرة القرم وكييف جزءاً من دول وإمبراطوريات مختلفة على مدار تاريخها الطويل، تماماً كما كان الحال مع بغداد أو البصرة أو الموصل، ومن المؤكد أن هذا ليس أساساً للجيران أن يدعي الحق في الأراضي إقليمية. إن الصراع بين روسيا وأوكرانيا لا يرتبط بالسعي إلى تقرير المصير من قبل أي مجموعة عرقية، بل يقوم على تحريف قوة عدوانية تجاه الحدود التي اعترفت بها.

إن المواقع الجغرافية المختلفة والتجارب التاريخية المختلفة تجعل الدول تختار حلفاء مختلفين ولديها رؤية مختلفة للقوى العظمى مثل الولايات المتحدة الأمريكية أو روسيا. ومع ذلك، هناك شيء واحد واضح: لا يمكن لأي قوة أن تأمر أمة أخرى بأن تحبها وتعترف بها كصديق أو أخ. ناهيك عن معاقبة وإرهاب دولة أخرى لإجبارها على الصداقة. الصداقة التي تُفرض

بالقوة هي عبثية. ويجب على جميع الدول أن تفهم ذلك وتحترم قرارات دول اخرى. وتعتقد روسيا أن القوى العظمى فقط، بما في ذلك روسيا، هي التي تمتلك القرارات، أما بقية القوى فهي مجرد ألعاب تُلعب من أجلها. ولا يمكن للدول المحبة للحرية أن تقبل هذا النهج.

وتزعم روسيا أن السلطات الأوكرانية لا تمثل الأوكرانيين بسبب وقوع "انقلاب" عام 2014. ومنذ ذلك الحين، أجريت الانتخابات الرئاسية والبرلمانية هناك مرتين، وسط منافسة شرسة بين مختلف الأحزاب والمرشحين. تم انتخاب الرئيس الحالي، فولوديمير زيلينسكي في عام 2019 في انتخابات لم تكن صحتها موضع شك، وشارك فيها 63% من الأوكرانيين.

ومن الذي يجب أن يقرر من هي السلطة الشرعية في العراق أو بولندا أو أوكرانيا؟ الجيران أم القوى الأجنبية أم الأمة نفسها؟ فهل ما زال العراق يحكمه حزب البعث وجميع الانتخابات غير شرعية؟ هل الدستور العراقي لعام 2005 غير شرعي لعدم موافقة صدام حسين عليه؟ ومن الذي يقرر بشأن هذا؟ موسكو، واشنطن، أنقرة، طهران، لندن، أو ربما إسرائيل، أو الشعب نفسه؟ لقد انتخب الأوكرانيون رئيساً وبرلماناً، وليس من حق أي دولة أخرى أن تتدخل. كما هو الحال في العراق.

السخرية والنفاق فن أتقنه الروس إلى حد الكمال

إن سخرية روسيا ونفاقها يظهران في موقفها من صدام حسين والإطاحة به. ولم تنزعج روسيا قط من جرائم هذا الطاغية. ولا حتى الهجوم بالأسلحة الكيميائية على حلبجة، ولا المذبحة التي تعرض لها الشيعة في جنوب العراق في عام 1991. من الصعب القيام بخلاف ذلك، لأن روسيا مثقلة بقائمة طويلة من الجرائم. كجزء من غزواتهم الاستعمارية، لم يقتل الروس "المتمردين البولنديين" بلا رحمة فحسب، بل أيضًا الدول الإسلامية في آسيا الوسطى والقوقاز.

في تسعينيات القرن الماضي، وفي حربين شيشانيتين، قُتل عشرات الآلاف من السكان المدنيين والمواطنين الروس في القوقاز على أيدي الجنود الروس. وفي ذلك الوقت، زعمت روسيا أنها تدافع عن سلامة أراضيها ضد الانفصاليين. وبعد سنوات قليلة، في عام 2008 غزت القوات الروسية جورجيا، ولا تزال تحتل جزءًا من أراضيها حتى اليوم. وقد حذر الرئيس البولندي ليخ كاتشينسكي العالم من الإمبريالية الروسية، وبعد عامين توفي الرئيس في حادث تحطم طائرته على الأراضي الروسية. وبعد أربع سنوات من وفاته، طعنت روسيا في وحدة أراضي أوكرانيا، وحرضت على الانفصال وبدأت تطلق على نفسها اسم المدافع عن حق تقرير المصير، وأسقطت مرتزقتها الذين يعملون على الأراضي الأوكرانية طائرة ركاب، مما أسفر عن مقتل 283 راكبا و15 من أفراد الطاقم.

وفي حالة أوكرانيا، بدأت روسيا في استحضار حجج تاريخية مشكوك فيها، أما بالنسبة لمنطقة القوقاز، حيث كانت تعتبر وحدة أراضيها مقدسة، فإن روسيا احتلها في القرن التاسع عشر. ولكن شبه جزيرة القرم احتلتها روسيا عام 1783، ويتعرض سكانها الأصليون التتار المسلمون، للاضطهاد حاليًا لأنهم لم يعترفوا بالضم الروسي عام 2014. ويقبع العديد منهم في السجون والمستعمرات العقابية. ومن الجدير بالذكر أيضًا كيف تعامل روسيا المسلمين. ورغم أنهم يشكلون ما لا يقل عن 15% من سكان البلاد، إلا أنهم شبه غائبين عن الحكومة المركزية. إن كراهية الإسلام متجذرة بعمق في روسيا، كما يتضح من حقيقة أنه لا يوجد في موسكو سوى 4 مساجد شرعية لمسلمي العاصمة الروسية البالغ عددهم 2.5 مليون نسمة. وفي الوقت نفسه، في أوكرانيا، لم يشتكي المسلمون من الاضطهاد أبدا.

لقد دعمت روسيا صدام حسين حتى النهاية واعتبرت الإطاحة به جريمة، لكن ليس لديها مشكلة في التعاون مع من وصلوا إلى السلطة بعد إزاحته. علاوة على ذلك، فهو يريد إقناعهم بأن السلطات الأوكرانية غير شرعية رغم إجراء الانتخابات، وأن السلطة القانونية هي رجل طرده الشعب الأوكراني قبل 7 سنوات ويختبئ الآن في إحدى الفيلات الفاخرة في روسيا. وفي الوقت نفسه، صرح فلاديمير بوتين أنه منذ غزو الولايات المتحدة للعراق في عام 2003، يمكن لروسيا أيضًا غزو أوكرانيا. وهذا يعني أن روسيا تعترف بأنها تتصرف بشكل غير شرعي حسب فهمها، وتقوم بما أدانته بنفسها في قضية العراق. ولكن في الوقت نفسه، لم تقم أي دولة أخرى بضم أجزاء من العراق، كما فعلت روسيا في حالة أوكرانيا. وحقيقة أن صدام حسين كان عدواً لإيران و هذا لا تمنع روسيا من استيراد طائرات بدون طيار من إيران لنشر الرعب في أوكرانيا. فهل يمكن أن تكون أكثر نفاقا من روسيا؟

فمنذ كبح الدموي لانتفاضة العشرينيات إلى هجوم داعش، وقع العراقيون مرارًا وتكرارًا ضحايا للجرائم المرتكبة ضدهم. ولن ينسى الأكراد أبداً أن صدام حسين نفذ هجوماً كيميائياً على سكان حلبجة، مما أدى إلى مقتل ما يقرب من 5000 شخص من المدنيين. ولم تكن هذه جريمته الوحيدة. واليوم أصبح الأوكرانيون ضحايا لمثل هذه الجرائم، ومرتكبها هو روسيا الاستعمارية والإمبراطورية. في مارس 2022، قتل الروس ما يقرب من 400 مدني عزل في بوتشا الأوكرانية. وكان الهدف من هذا العمل الإجرامي ترهيب السكان ومعاقبتهم على مقاومتهم. وتحاكم المحكمة الجنائية الدولية الرئيس الروسي فلاديمير بوتين بتهمة الترحيل الجماعي لأطفال أوكرانيين. يتم اختطافهم من والديهم، ويتم إرسالهم إلى "عائلات" جديدة تحاول غرس الكراهية تجاه أمتهم وأقاربهم.

تمامًا كما فعلت داعش في العراق قبل بضع سنوات، حيث قتلت الآباء وأجبرت الأطفال على الطاعة بالإرهاب، وغسلت أدمغتهم ودربتهم ليصبحوا إرهابيين. إذن ما الفرق بين داعش وروسيا؟ حوالي 19.5 ألف من الأطفال ألأوكرانيين تم اختطافهم من قبل الروس ولا يريدون إعادتهم إلى عائلاتهم. ومجموعة فاغنر جزء من القوات المسلحة الروسية. وعلى الرغم من كونها مؤسسة عسكرية خاصة رسميًا، إلا أنها في الواقع تابعة للسلطات الروسية. ترتكب جماعة فاغنر جرائم لا تقل وحشية عن جرائم داعش. وهذا يشمل من بين أمور أخرى: عمليات الإعدام العلنية التي تنطوي على تحطيم الرؤوس بالمطرقة، والاغتصاب الجماعي للنساء والفتيات القاصرات، وما إلى ذلك.

الحياة الإنسانية لها نفس القيمة سواء في الشرق الأوسط أو في أوروبا الوسطى. فالعدوان على دولة أخرى شر، مثل قتل الناس دفاعاً عن ديارهم وأهلهم ويقاتلون من أجل وطنهم. إن الغزو الإمبراطوري والاستغلال الاستعماري أمر خاطئ أيضاً، وروسيا هي على وجه التحديد دولة إمبريالية واستعمارية. وكانت بولندا وأوكرانيا مستعمرتين لهذه الإمبراطورية لكنهما حررت نفسيهما منها. والآن تهاجم الإمبراطورية مرة أخرى، لأن هذه هي طبيعتها. لا يمكن لروسيا أن توجد بدون الفتوحات. وعلى هذا فإن الحرب في أوكرانيا لا تتعلق بنزاع إقليمي فحسب، بل إنها تدور حول الطموح الجامح لإعادة بناء الإمبراطورية، ليس داخل حدود الاتحاد السوفييتي المنهار بل داخل حدود روسيا القيصرية. وإذا سمح العالم لروسيا بغزو أوكرانيا، فإن دول البلطيق ستكون التالية، تليها بولندا وغيرها من دول أوروبا الوسطى. ولن تتوقف روسيا إلا حيث توقفت، وحتى ذلك الحين لن يكون هناك سلام. وهذا من شأنه أن يؤدي إلى سلسلة من ردود الفعل لزعزعة الاستقرار في أجزاء أخرى من العالم، بما في ذلك الشرق الأوسط، مما سيؤدي إلى نشوب حروب جديدة.

إن الروس يبثون شيئاً على شاشات التلفزيون، وشيء آخر للدول التي لا تعرفهم مثل البولنديين أو الأوكرانيين. وفي الداخل، نشروا الدعاية الإمبراطورية الروسية العظمى، معلنين غزو نصف أوروبا، وتدمير المدن وقتل الناس. وعلى شاشة التلفزيون الرسمي يهدد خبراء الروس بقصف المدن الأوروبية بالأسلحة النووية. إنهم لا يخفون حقيقة أن هدفهم هو إعادة بناء الإمبراطورية إلى أوسع حدودها في التاريخ. يقولون للآخرين أنهم يريدون السلام.

لا يمكن تحقيق السلام في أوروبا إلا بطريقة واحدة، أي من خلال انسحاب روسيا إلى حدود ما قبل عام 2014 والالتزام باحترام سيادة جيرانها و وحدتهم الإقليمية. هذا ليس طلبا مفرطا. ففي نهاية المطاف لا أحد يدعو إلى تفكيك الإمبراطورية الاستعمارية الروسية من خلال السماح لجميع الشعوب الأصلية في أراضيها بتقرير مصيرها، رغم أن هذا قد يكون شيئا عادلا مثلما تم تفكيك الإمبراطوريتين الاستعماريتين البريطانية أو الفرنسية. لا أحد يتوقع من سكان المناطق الأخرى من العالم، وخاصة الشرق الأوسط، أن يعترفوا بالمأساة الأوكرانية كأولوية. نحن نفهم أن لديهم مشاكلهم الخاصة. نريد منهم فقط أن يفهمونا.

Public task financed by the Ministry of Foreign Affairs of the Republic of Poland within the grant competition “Public Diplomacy 2023”

The opinions expressed in this publication are those of the authors and do not reflect the views of the official positions of the Ministry of Foreign Affairs of the Republic of Poland.

Ministry of Foreign Affairs
Republic of Poland